مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 4 السنة: 2020
ص: 504 - 519 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

ورطة الهوية بين جدلية الذاكرة والنسيان

في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" لـ عمارة لخوص

Identity dilemma between the dialectic of memory and forgetting in the novel “How to breastfeed a lupus without biting you” by Amara Lakhous

د.سعيدة حمداوي*

saida hamdaoui,

جامعة العربي بن مهيدي–أم البواقي (الجزائر)

University of Oum EL Bouaghi- Algeria

ssaidahamdaoui@gmail.com

تاريخ الإرسال:2020/04/15	تاريخ القبول:2020/07/09	تاريخ النشر : 2020/11/07

ملخص البحث

تركز هذه الورقة البحثية على كشف ورطة الهوية بين تجليات الذاكرة وارتباطها الجدلي بالنسيان في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك؟" لـ**عمارة لخوص**. من منطلق أن حضور الذاكرة لا يستطيع جمع كل تفاصيل التجربة الحياتية، مادام أن هناك عوارض وتغيرات تسهم في تعميق هوة النسيان، لتجعل الذاكرة في تماس مباشر إزاء التاريخ، وتتجلى بوصفها وسيطا بين الزمان والسرد، فيحتوي النسيان الذاكرة بوصفه يشكل الأفق المحدود لكل التجارب الإنسانية في كل امتدادها.

الكلمات المفتاح :هوية، ذاكرة، نسيان، تسمية، رواية.

Abstract :

This paper focuses on uncovering the identity dilemma between the manifestations of memory and its dialectical link with forgetfulness in the novel "How do you breastfeed from lupus without biting you?" by Amara Lakhos. On the basis that the presence of memory cannot collect all the details of life experience, as long as there are symptoms and changes that contribute to deepening the forgetting gap, to make memory in direct contact with history, and it is manifested as a mediator between time and narration, so forgetting contains memory as it constitutes the limited horizon of all human experiences in all its stretch.

Keywords: Identity, memory, forgetfulness, naming, novel.

* سعيدة حمدلوي: ssaidahamdaoui@gmail.com

مقدمة:

تستوقفنا الهوية السردية حسب **بول ريكور** على مسلمة تعتبر الزمان يعاش كسرد، هذا الأخير يعود إلى أمر إبعاد الهوية التي تضمن استمراريته الزمنية على الرغم من كل ما يعترض الحياة من تغيرات تسهم الهوية السردية فيها بوضع تجربة الزمان المعيش، وحكيه في علاقة مباشرة تمر عبر الذاكرة في الواقع. كل هذا تكشف عنه شخصية المهاجر الجزائري أحمد أو أمديو في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" للروائي **عمارة لخوص** الذي أصدر هذه الرواية باللغة الإيطالية، وأعاد كتابتها باللغة العربية حيث كان التغيير بين النسختين الإيطالية والعربية على مستوى اللغة والسرد، في حين تم الاحتفاظ بالشخصيات والحبكة نفسها. وتعد هذه الرواية من أهم الروايات العربية التي فككت نفسية المهاجرين، وكشفت نظرة الآخر إلى هذه الفئة، وعن تجاذبات الهوية في مختلف تمثلاتها.

وعليه، يطرح البحث مجموعة من التساؤلات من أهمها:

-كيف تجلى التعالق سرديا بين الذاكرة والهوية في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك"؟ لماذا يعد الاسم شكلا من أشكال الهوية في الرواية؟ وما الذي يربط بين الذاكرة والنسيان في الرواية؟

1- سرد الذاكرة والهوية:

تنضوي رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" ضمن محكي الذاكرة والهوية شأنها في ذلك شأن محكيات الواقع والسير الذاتية، فالذاكرة هي أيضا "فن القص الذي يتخذ هوية الفرد وتكون دافعيته الأولى هي دائما ذلك الأمل العبثي في أن نتدارك انحسارنا الحتمي"[1]؛ هذا يعني أن السرد يجعلنا نعي تحولات هوية الإنسان ومنعرجاته، وكل احتمالاته الممكنة. من ثم، يبرهن السرد على أنه وسيلة مناسبة لاستكشاف الذات، من منطلق أن "الاحتمالية الحقيقة بهوية الإنسان مرتبطة بالمفهوم الحقيقي للسرد وسمته"[2]. من هنا، يقر **إدوارد سعيد** بتورط الهوية القومية في تشكيل السرود؛ "سرد ماضي الأمة، وسرد أجدادها المؤسسين، وسرد الوثائق، والوقائع الأصلية، وغيرها"[3]، نافيا في الوقت نفسه حيادة السرد في نقل الوقائع والأحداث.

تخضع الهوية كبقية أشكال السرد "للتحبيك أيضا، فثمة جماعات لا تتمثل وجودها التاريخي الخاص إلا من خلال سردها الخاص أو تحبيكها الخاص لتاريخها الثقافي"[4]، ويقع رهينة التوتر والانشطار في مستواه البسيط ليصل مداه إلى صراع بين الحضارات، "ذلك أن سيادة أية هوية أو سردية أو حبكة ثقافية لا يتم إلا على حساب انحسار هوية وسردية وحبكة أخرى"[5]، ويغدو تصنيف الأفراد احتكاما إلى مؤشر هوياتهم الأصلية بكل مكوناتها الدينية واللغوية. إن طبيعة الحكي في هذه الرواية "كحكايات شهرزاد لا تنتهي أبدا وإنما تبدأ باستمرار"[6].

– أمديو مهاجر مثل بارويز الإيراني وإقبال البنغالي والخادمة السمينة ماري كريستينا[7].

– لا تقولوا أن أمديو مهاجر، هذه المسألة تجلب الصراع الى رأسي. أنا لا أحقد على الأجانب[8].

تتأسس الهوية السردية في الرواية على مجموعة متنافرة من الهويات الهامشية اللاهثة حول الهوية المركز، وتسعى باستنزاف كل الوسائل الممكنة انتزاع اعتراف الآخر بتواجدها ضمن فضائه الحضاري الضيق، إذ تندمج شخصية أحمد في المجتمع الإيطالي من بوابة اللغة في محاولة تهريبه القسري من الماضي، وعبور حدوده الشائكة حاملا غنائم هوية جديدة، ذلك أن شعور الشخصية بالانتماء إلى هوية ثقافية معينة، لا يعدو كونه حاجة نفسية واجتماعية ضرورية لا غنى عنها.

– لقد ضحى أمديو بكل شيء من أجلي، إذ تنازل عن وطنه ولغته وثقافته واسمه وذاكرته. اراد أمديو إسعادي بأي ثمن. تعلّم الايطالية من أجلي وأحبَّ الطبخ الإيطالي من أجلي وسمى نفسه أمديو من أجلي، باختصار صار إيطاليا لإسعادي[9].

– أنا رضيع احتاج يوميا إلى الحليب، اللغة الإيطالية هي الحليب اليومي[10].

– لا تسكن في بلد وإنما نسكن في اللغة. هل اللغة الإيطالية هي مسكني الجديد؟[11]

تعيد الذاكرة في الرواية بناء الهوية، وتساعد على تأطيرها دون أن يعنيها كثيرا التحقق من النقل الأمين لأحداث الماضي، والبحث في هذه المسألة "يجد منشأه في "أزمة النظام التاريخي الحديث" وفي امحاء الصور وضعف الهويات، فالبحث عن الذاكرة يعتبر عندئذ جوابا عن هويات أصابها الضرر وفقدت توازنها"[12]؛ وهذا يعني متانة الصلة بين كل من الهوية والذاكرة وارتباطهما الوثيق من منطلق أن الذاكرة مفتاح وعينا، وصانعة وجودنا في مقابل تشكيلنا لملامحها.

في حين، تؤدي الذاكرة وظيفة بناء الهوية بكل حمولتها من صنوف الذكريات وضروب النسيان. ومادامت الهوية وليدة الذاكرة، فغاية تعالقهما؛ "إنتاج مسار للحياة، تاريخ، أسطورة، قصة، ويبقى النسيان وحده في النهاية بالتأكيد"[13]. بيد أن المعادلة التي تقر بأن الذاكرة هوية فاعلة، قد تنقلب لتتحول إلى تهديد ونسف لكل مشاعر الانتماء والانتساب، كما هو الحال في ذكريات الصدمات والمآسي، حيث يتم صياغة الذاكرة عند شخصية أحمد أو أمديو وباقي الشخصيات الأخرى من شظايا الماضي، ليتم بعدها جمع شتات هويتهم الجديدة. إذ الشعور باكتمال "هويتنا الجسدية عبر الزمن أمر معقد وأنها تتأكد من خلال المعرفة الداخلية بماضينا التي تأتي بها الذاكرة"[14].

– بالنسبة لبارويز الطبخ الإيراني بتوابله وروائحه هو ما يبقى من الذاكرة بل إنها الذاكرة والحنين ورائحة الأحبة معا[15].

– الكسكس كحليب الأم تماما، له رائحة مميزة لا تسترد إلا بالاحتضان والتقبيل[16].

تُبقي مشاعر التعاطف الشديد الذي يبديه أحمد تجاه هويته الشخصية مساحة أمل لاستعادة الذاكرة بالمستوى نفسه على أساس أنه جزء "مستمر في الوجود يمتلك في الاعتيادية ذلك الإحساس بالهوية والرغبة في المحافظة عليه"[17]. علاوة على أنه إحساس بسيرورة الزمن ووقعه الحاد على نفسية الشخصية. وعليه، "يسهم الماضي بإعداد الهوية الفردية أو الجماعية، كما يسهم بتأصيل قيمنا ومثلنا العليا ومبادئنا شريطة قبولنا أن نخضع هذه لفحص العقل وللنقاش بدل أن تفرض علينا لأنها ملكنا"[18].

– المرض يوقظ شيطان الحنين أو "الوحش"– كما نسميه عندنا– انه الخوف من الموت: الموت بعيدا عن أنظار الأحبة، الموت وحيدا، الموت بعيدا عن الأم (...) ألست الراحة الأبدية في العودة إلى رحم الأم؟ ما أوحش أن يجمع رفاتك قبر في المنفى![19]

2– الاسم فخ الهوية:

يحيل الاسم على الهوية، وفي جنباته تجتمع الذات بالأخر، ذلك أن للأسماء في كل مجتمع من المجتمعات محمولاته الدلالية وشبكته التي تصله بالتاريخي والحضاري والأسطوري، إذ نجد أن بعض الأسماء تشكل هوية فرد أو مجموعة كاملة من الأفراد كأسماء الرسل والأنبياء أو حتى الزعماء والمشاهير.

- إن الاسم يحدد موقعنا في المجتمع. إذا كان اسمك محمد مثلا، فهذا يعني قطعا أنك لست مسيحيا أو يهوديا، وإنما مسلما(...) فالاسم هو العلامة الأولى على هويتنا[20].

- اسمه الحقيقي أحمد وهو اسم عظيم لأنه اسم الرسول وقد ذكر في القرآن والإنجيل[21].

من هنا، تحيل أسماء الشخصيات في الرواية على الهوية الثقافية المتبناة من طرف كل شخصية. بهذا، تكون التسمية تعبيرا عن وجهة نظر ومجموعة مواقف ورؤى، فتنشأ بذلك علاقة وطيدة بين الإنسان واسمه حتى دون أن يكون له تدخل مباشر في اختياره، هذه المسألة تأخذ مسارها المعقد عند فئة المهاجرين والمنفيين.

- لا يوجد شخص في العالم يختار اسمه (...) ما أعنيه هو أن الاسم مسألة أساسية لجميع المهاجرين، أول سؤال يطرح على المهاجر هو ما اسمك؟ إذا كان الاسم أجنبيا، فإن حاجزا أوتوماتيكيا سيحدد الفاصل بين "نحن" و"هم"[22].

تتحول الأسماء التي تحملها الشخصيات إلى معضلة حقيقية في ظل صراع هويات مغايرة ترفض قبول الآخر المغاير اسميا. وبالتالي، تتحول الأسماء إلى خيار بين مجموعة من الخيارات الممكنة التي يفرضها واقع ثقافي وحضاري وقيمة اجتماعية وأخلاقية لا معطى عفويا يحصل اعتباطا؛ ما يعني أن امتلاكنا لأسماء هو بالضرورة امتلاك لهوية تعبر عنا. من هنا "يصير الاسم عبئا ثقيلا ينهك عاتقنا وسيفا مسلطا على رقابنا"[23]. في حين أن "الأسماء الخاطئة العشوائية تكلف غاليا لأنها تسبب في نشوء العقد النفسية. قل لي اسمك، سأقول لك من أنت!"[24].

تتصف الهوية باللاثبات والتغير والحركية بناء على مدى قبول تقمصنا مبادئ حضارة غير حضارتنا. من هنا، تتجه الأسماء مباشرة إلى بوصلة الهوية، وتحدد اتجاه مؤشرها اللامستقر في محاولة للتأقلم مع وضع مقاوم ورد فعل مضاد، إذ تتخذ الأسماء من جهة أخرى شكلا من أشكال "الرقابة الاجتماعية لأخريه الفرد الأنطولوجية أو للآخرية المتصورة لجماعة من الجماعات"[25].

من هذا المنطلق، يتحول الاسم إلى رهان من رهانات الذاكرة، وعنوانا من عناوين الهوية، هذه الأخيرة تحتوي الأسماء ومجمل مدلولاتها، غير أنه من واجب الذاكرة "ترميم أسماء الأعلام. فمحو اسم شخص من ذاكرة امرئ إنما هو نفي وجوده نفسه، (...) واكتشاف اسم

ضحية إنما هو إخراجه من النسيان، وجعله يولد مجددا ويُعرف إذ يمنح من جديد وجها. هوية"[26].

– توقفنا طويلا عند مسالة الاسم ولم تعثر على اسم أمديو في وثائقه الرسمية مثل جواز السفر، عقد الزواج، وثيقة الإقامة[27].

تتعمد الرواية إغفال الاسم الحقيقي والأصلي لشخصية أحمد، وتمارس عليه فعل التغييب والاختزال، إذ لا نكتشف أصوله ولا تعرف بقية الشخصيات المحيطة به شيئا عن حقيقته إلا في الصفحات الأخيرة من الرواية في دلالة على أن "نسيان اسم العلم في الرواية نسيان للهوية. وتتضح الهوية بقدر ما تكون مرتبطة باسم العلم. تستغل الجماعة الماكرة نسيان البطل لاسمه، فتبدأ بمناورته على هويته"[28].

– أمِدْ (Amed) ليس إيطاليا أَمِدْ (Amed) هو أمِديو (Amedo)[29].

– عندما سألني ساندرو عن اسمي، قلت له: أحمد، فنطق اسمي دون حرف الحاء أي امِدْ لأن الأبجدية الإيطالية لا تتوفر على هذا الحرف في النهاية ناداني باسم أمِدْيو وهو اسم إيطالي ويمكن أن يختصر إلى "أمِدْ" بحذف الحرفين الأخيرين[30].

إن عدم احتجاج شخصية أحمد على تحريف اسمه إلى أمديو هو نوع من القبول الضمني بتبني هوية جديدة من خلال تقلد اسم بديل أو مجزء من جهة، ومحاولة التنصل من هوية أصيلة بما تحملها من ماضي بهجة الجريحة من جهة أخرى. وبذلك تشبثت الرواية بالاسم البديل دون أن تُشعر الشخصية بأي تهديد ينسف الهوية الأم في إحالة إلى فكرة تعدد وحوار الهويات على الأقل من وجهة نظر الشخصية.

– ما يهمني حقا هو أن أرضع من الذئبة دون أن تعضني وأن أمارس هوايتي المفضلة: العواء! اووووووووو[31].

– بل أنت رضعت من ثدي الذئبة، لذلك نستحق أن تتوسط التوأمين روموولو وريمو في حضن روما يا أمديو!"[32].

– أنا أعشق الذئبة ولا أستطيع الاستغناء عن حليبها[33].

إن اكتساب اسم جديد يعني بالضرورة هوية جديدة، ويستتبع بحثها الحثيث عن تمثل صفات ومقومات جديدة نجدها في شخصية أمديو المثيل البديل لشخصية أحمد، إذ تتمثل في

إتقانه للغة الإيطالية وزواجه بالإيطالية ستيفانيا مسارو، لإحداث نوع من التوازن في حال حدوث اشتباك بين شخصيتين متصارعتين حضاريا، فضلا عن سبب أهم يصرح به أحمد في قوله: "إن تغيير الاسم يساعد على العيش أفضل لأنه يخفف من أعباء الذاكرة. إذا أنا في مأمن من انفصام الشخصية بسبب اسمي الإيطالي، لا ضرر من أمِدْيُو، لكن هل هناك نزاع صامت بين أَمِدْيُو وأحمد؟"[34].

ينفتح الراوي على عدة مرجعيات تثري البنية العميقة للنص الروائي، ويستحضر على لسان أمديو رأيا لـ **فرويد** عن قراءته لمسألة التسمية في التحليل النفسي، إذ يعتقد "أن الاسم الذي يحمله الإنسان هو عنصر أساسي من كيانه، بل قد يكون جزءا من روحه"[35]. ففي كتابه "الطوطم والحرام" يتناول **فرويد** حفرية الأسماء عند الشعوب القديمة والقبائل البدائية ورمزيتها، ودلالة أسماء القرابة، كما كشف عن حظر النطق بأسماء الأخوات والموتى. ليخلص إلى "أن الاسم يؤلف عند البدائي جزءا أساسيا من الشخصية، ملكا عظيم الأهمية، وأنه يحتفظ بدلالته العينية كاملة"[36].

هذه القناعة بقيمة الاسم نجدها عند شخصية عبد الله قدور الجزائري المقيم في روما، بالنظر إلى أن الذاكرة الصامدة تقابل فعل الزمن المهدد بالنسيان الانتقائي، إذ "لابد من اسم العلم الذي يحفظ الواحد من التبدد والتبعثر، ويلملم هويته الشخصية"[37] التي تحيل على زوال الهوية الشخصية أو تغييبها من طرف الأخر المختلف.

– أنا أعرف تمام المعرفة أنه اسم عسير النطق عند الايطاليين رغم هذا أقسمت أن لا أغيره ما دمت حيا. لا أريد أن أعصي والدي الذي منحني هذا الاسم (...) حاول الكثير من الإيطاليين الذين أعرفهم إقناعي بتغيير الاسم وعرضوا علي مجموعة من الأسماء الإيطالية[38].

– لن أغير جلدي ولادييني ولا لغتي ولا بلدي ولا اسمي مهما حدث. أنا فخور بنفسي، ليس مثل المهاجرين الذين يغيرون أسماءهم حتى ينالوا رضا الإيطاليين. خذ مثلا التونسي الذي يعمل (...) اسمه الحقيقي محسن لكنه أطلق على نفسه أو اطلقوا عليه اسم ما سيمليانو![39]

ورغم هذه التحصينات المقامة حول قلعة الهوية، يقع عبد الله في ورطة التسمية، فيستسلم لتقطيع اسمه وتشذيبه ليلائم البيئة الحضارية الجديدة التي اختار الانتماء إليها، ويرضى بأن يتخلى عن جزء من هويته بتغييب الجزء الثاني من اسمه، إذ الاحتفاظ بنصف الهوية أفضل من خسارتها كليا، ويتجنب عبدو الوقوع في مشكلة ازدواجية الذات، فالهوية الشخصية "هي ما يجعلني غير متماثل مع أي شخص أخر"[40].

- عثرت على مخرج من هذا المأزق بفضل صديقي المصري متولي الذي نصحني بإدخال تغيير طفيف على الاسم. قال لي إنه من عادة المصريين إطلاق اسم عبدو على كل من يحمل اسم يبدأ بعبد مثل عبد الرحمان(...) فقبلت بهذا الحل تجنبا للمشاكل التي ذكرتها من قبل[41].

- المشكلة لم تنته عند هذا الحد، فقد عمد البعض إلى حيلة جد منتشرة في روما وهي حذف الجزء الأول أو الجزء الثاني من الاسم فصرت أسمع من يناديني إما عبد أو الله![42]

يحدد الاسم علاقة الشخصية بهويتها، ويحدث تغييرها نوعا من الشكوك إزاء إمكانية حدوث نوع من تبني هوية مغايرة، وانتماء أخر لفضاء ثقافي جديد؛ "فالهوية لا تتجزأ أبدا، ولا تتوزع أنصافا أو أثلاثا أو مناطق منفصلة(...) بل هوية واحدة مكونة من كل العناصر التي شكلتها"[43]، يبدو ذلك في حديث عبد الله بن قدور عن أحمد.

- لا أزال أذكر المخاوف التي استبدت بي عندما سمعت الناس ينادونه "أمديو"، خشيت أن يكون قد أرتد عن الإسلام، لم أطق الصبر والانتظار، فسألته بقلق وتوجس: "هل اعتنقت المسيحية يا أحمد؟، فأجابني بنبرة صادقة: "لا". عندئذ تنفست الصعداء وقلت بصوت مرتفع:" الحمد لله! الحمد لله!" كانت مخاوفي في محلها لأن من عادة من يعتنق دينا جديدا أن يغيّر اسمه القديم[44].

تتباين وجهات نظر باقي شخصيات الرواية حول مسألة التسمية، فمنهم من يرى أن محاولة بناء هوية جديدة يبدأ من مفتاح الاسم، هذه الفكرة تجد حضورا لها عند شخصية البنغالي أمير الله إقبال، رغم محاولته المستميتة في التمسك باسمه، ورفض كل محاولة استبدال تلحق به سواء من عبد الله بسبب أن اسمه مخالف دينيا أو من طرف الشرطة التي لم تهتم كثيرا بتراتبية الاسم وقيمته الرمزية عند باقي الشعوب.

– مشكلتي مع الشرطة عندما ذهبت لسحب وثيقة الاقامة، لاحظت أنهم أخلطوا بين اللقب والاسم، حاولت أن أشرح لهم أن اسمي إقبال ولقبي أمير الله أي اسم والدي لأن من عاداتنا في بنغلاداش إرفاق اسم الابن أو الابنة باسم الأب، للأسف كل محاولاتي باءت بالفشل[45].

– قررت أن اسمي ابني روبرتو، سيكون اسمه الكامل روبرتو إقبال! لقد أقسمت ولم أحنث، فقد أنجبت زوجتي ذكرا سميته على الفور روبرتو إنها الطريقة الوحيدة لتجنب مصيبة الخلط بين الاسم واللقب، من المستحيل الوقوع في هذا الخطأ لأن روبرتو وماريو وفرانشيسكو وماسيمو وجوليو وورومانو كلها أسماء وليست ألقابا، ينبغي أن أبذل كل ما في وسعي لأجنب ابني روبرتو هذه المشاكل البيرقراطية[46].

– أنا أعرف أن أسماءنا صعبة النطق بالنسبة لكم، أنا متأكد أن ابني روبرتو سيبتسم له الإيطاليون كثيرا![47]

3– كوجيتو الذاكرة والنسيان:

يرافق النسيان كل مرحلة من مراحل تشغيل الذاكرة، ما يؤكد مقولة **بول ريكور**: "أن تذكر يعني ألا أنسى"[48]، في إشارة إلى أن الذاكرة تحفظ للنسيان وجوده وحضوره المستمر، فما نحن إلا ما تحمله ذاكرتنا، وما نحن إلا ما نستطيع نسيانه، فحياتنا مجموعة من حقائق حاضرة وغائبة، وجملة آرائنا ومواقفنا من الوجود والموجودات تشكل ما يمكن تذكره أو نسيانه. من هنا، يمكن تحوير مبدأ الكوجيتو الديكارتي إلى مقولة: "أنا أتذكر إذن أنا موجود، أنا أنسى إذن أنا موجود".

تحيل الأسطورة اليونانية إلى ليثي (léthe) والتي "ترمز إلى النسيان، وشخصيتها مجازية أكثر منها أسطورية. وكانت منبع النهر إلى الجحيم الذي يشرب الموتى مياهه ليفقدوا ذكرياتهم عن حياتهم السابقة"[49]، في مقابل "نهر يدعى (mnémosyne) من شرب منه عادت إليه ذاكرته وصار عليما بكل شيء"[50]؛ ما يعني وعي الشعوب القديمة بأهمية فعلي الذاكرة والنسيان في بناء كينونة الفرد والمجتمع.

وإن كانت الذاكرة، هي "المادة اللاصقة التي تجعل حياتنا العقلية متماسكة(...) وحين تضيع(...) فإننا نخسر مقدرتنا على إحياء ماضينا وتكون النتيجة أننا نفقد صلتنا بأنفسنا

وبالآخرين"[51]. فإن النسيان "يظل التهديد المقلق الذي يبدو في خلفية فينومينولوجيا الذاكرة وابستيمولوجيا التاريخ"[52]؛ ما يعني أنه أي النسيان يعاش كطعن في وثوقية التاريخ والذاكرة وصراعا محتدما ضد سيرهما المطلق.

يشكل النسيان تيمة بارزة في الرواية، ويمثل حضوره الحيز الأهم من أحداث حيوات وذوات الشخصيات الروائية. "فإذا كانت استعادة الماضي تقود إلى الموت، فكيف لا نفضل عليها النسيان؟"[53]. تستسلم شخصية أحمد لقوة بعض الذكريات المأساوية والمرتبطة منها بذكرى الفقدان، فيقوم النسيان على مساعدته، لينبعث ضمن فضاء هوية جديدة، رغبة منه في فتح صفحة بيضاء خالية من ترسبات طبقات الماضي الدموي. إذ تجلي فعل النسيان في رغبة أحمد في التخلي عن ماضيه، ويتحرر منه دون أن يرافقه في الحاضر، بالنظر إلى أفضلية النسيان على تذكر الألم. بيد أن "بعض الأفكار لا تمحى، حاضرة أينما ولينا، عصية على النسيان، ثابتة"[54]، ولا يفتأ النسيان بكل أشكاله معول هدم يستهدف مكون الزمن، وما يحمله من صور الذكريات التي تتسلل في حالات الكبت واللاوعي والأحلام.

- كان أمديو يعاني من الكوابيس من حين لآخر، لم أساله عن محتواها لأن الكابوس هو نافذة يتسلل منها الماضي في ثوب السارق" هكذا يقول أحد الكتاب الفرنسيين[55].

- قالت لي ستيفانيا هذا الصباح أنني صرخت أثناء النوم وكررت عدة مرات اسم "بجة" لاشك انها تعني "بهجة". لم أرغب في إخبارها بتفاصيل الكابوس. ما الفائدة من إشراكها في لعبة الكوابيس؟ ذاكرتي جريحة تنزف، يجب أن أضمَّد جراح الماضي في عزلة[56].

تختزن الذاكرة بالنسبة لشخصية أحمد أو أمديو الحقيقة التي وجب نسيانها وتغييبها على مستوى الوعي. إذ "كثيرا ما يتم التلاعب والتدخل في سيرورة الذاكرة لمآرب ملحة أحيانا في الوقت الحاضر"[57]. من هنا، وجب أن يعاد الاعتبار لفعل النسيان بوصفه فعلا إيجابيا محررا وسلطة فاعلة وعلاجا مضادا للتاريخ، و"شكلا من أشكال الصحة المنيعة ما لبث أن استنبت لنفسه ملكة مضادة، ذاكرة، بعونها يتم، في حالات معينة تعليق النسيان"[58]، وليس مجرد قوة عاطلة رادعة تأييدا لما ذهب إليه **نيتشه**، إذ "لا يمكن أن يكون ثمة سعادة ولا صفاء ولا رجاء ولا فخار ولا حاضر من دون نسيان"[59]. فالحاجة إلى النسيان توازي حاجتنا للذاكرة على قدر سواء.

- في كثير من الأحيان تكون عدم معرفة الحقيقة أفضل من معرفتها[60].

– لم يكن مقتنعا بأن الحقيقة تجعلنا أحرارا بل على العكس تماما قال أن الحقيقة هي قيد ما يجعلنا عبيدا[61].

– هذا الصباح أعدت قراءة رواية الطاهر جاووت الموسومة "ابتداع الصحراء"، استوقفتني طويلا هذه الجملة: "الناس السعداء ليس لهم عمر ولا ذاكرة. إنهم لا يحتاجون إلى الماضي[62].

– قد يكون أمديو قناعا ليس إلا! أنا حيوان مفترس لا يستطيع التخلي عن طبيعته الأولى. الحقيقة أن ذاكرتي هي حيوان مفترس كالذئب تماما: أووووو[63].

– آه من الذاكرة الملعونة! الذاكرة صخرة سيزيف اللعينة. من أنا؟ أحمد أم أمديو؟ آه يا بهجة! هل من سعادة بعيدا عن ابتسامتك؟ هل من راحة بعيدا عن حضنك؟ هل حان وقت الاستراحة؟ إلى متى سيدوم المنفى؟ إلى متى سيدوم العواء؟ أووووووو[64].

تستبد الذاكرة بشخصية أمديو وتثقله حمولتها من أحداث الماضي العنيف، ويتحول فعل التذكر عنده من كونه مصدرا للشفاء إلى مأساة وعذاب، وسببا للمرض أيضا. ذلك أن "تذكيرنا الحثيث لأحدهم بالأحداث الأكثر مرارة التي عاشها في حياته، يتضمن شيئا من القسوة اللامتناهية؛ فحق النسيان موجود أيضا"[65]. بيد أن فعل التذكر بوصفه سيرورة تتحكم في الزمن، وتنقل الشخصية من حالة إلى أخرى، تضيء فيها جزءا من الماضي في إيقاع منسجم مع فعل النسيان، ذلك "أن التذكر الكثير جدا يخلف المرارة وتحقيق السلام يعني النسيان، ولتحقيق المصالحة من الضروري أن تكون الذاكرة ناقصة ومحدودة"[66]؛ ما يعني أن عمل كل من الذاكرة والنسيان يتفقان وظيفيا على ضمان التوازن الداخلي من الناحية النفسية والمعرفية.

– الماضي كالبركان، حذار من رفع الغطاء عن الفوهة![67]

– أحب ستيفاني لأنها متعلقة بالحياة، أعشق ذاكرتها الخالية من الكوابيس. أريد أن تصيبني بالعدوى: عدوى الحياة، عدوى الحب، عدوى المستقبل، عدوى العواء السعيد. أوووووووو[68].

– قبل الزواج طلب مني أمديو أن لا أساله عن ماضيه، لا أزال أذكر كلماته (...) حبيبتي، ذاكرتي كالمصعد المعطل، بل الماضي كالبركان النائم، ساعديني على تجنب إيقاظه الفظيع وحممه الجهنمية[69].

- المشكلة في معدة ذاكرتي التي لم تهضم جيدا ما تناوله قبل قدومي إلى روما. الذاكرة كالمعدة تماما؛ ترغمني من حين لأخر على التقيؤ. أنا أتقيأ ذكريات الدم. إنني أعاني من قرحة معدية في الذاكرة[70].

- آه من الذاكرة الملعونة! الذاكرة صخرة سيزيف اللعينة[71].

تؤدي شخصية عبد الله بن قدور أو عبدو دورا هاما في حفظ الذاكرة وانتشالها من ظلمة النسيان السلبي الناتج عن زوال آثار الماضي، وتُصيره بناء على ذلك مناضلا من مناضلي الذاكرة، حين يسهم النسيان في محاولة تدمير هوية أحمد، الذي يتذكر الأحداث ذاتها التي يخشى أن يشملها النسيان نفسه.

- عندما ناداني أحمد! لم أتعرف عليه في الحين، استذكرته بمشقة(...) تذكرت بصعوبة الحومة[72].

تتلاعب الرواية بذاكرة الشخصية المحورية، وتسلط عليها نوعا من المحو، وتحوله إلى "إنسان الذاكرة" على حد وصف **هارلد فاينريش** هذا الإنسان الذي "كلفه النسيان الحديث غاليا، فإن انتقاله الأخلاقي من ثقافة الآخرة إلى ثقافة المستقبل لم يجعل منه إنسان المنهج المنشود أو المبشر به بل "الإنسان الآخر" الذي لا مكان له في سردية الذات المنتصرة"[73]. ويستمر هذا الفعل حين يتم استهداف ذاكرة شخصية أحمد مجددا، وتُصيره الأحداث طريح سرير المستشفى أسير احتمال فقدان ذاكرته للأبد، وعرضة لخطر ضياع معالم كينونته: فهل من مصلحة أحمد سالمي أن يتذكر أم في صالحه أن ينسى كل شيء تحمله ذاكرته ذاكرة شهريار الدموية؟

نخلص في الأخير، إلى جملة من الملاحظات والنتائج نجملها في الآتي:

1- تمثلت رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" قضية فلسفية مركزية هي سرد الهوية مع كل ما تستتبعه من أسئلة وقضايا عن نوع الذات التي تدعم هذا البناء، وعن أهمية السرد في التمثيل التعبيري للخبرات الإنسانية، وأثبت قدرته على جعله سجلا ثريا للتجربة الإنسانية والوعي بالكتابة السردية.

2- تأسست الرواية على جانب صراعي تجلى في صراع الأسماء واستبدالها، وصراع الحضارات ومركزيتها، وصراع الذاكرة والنسيان وجدليتهما، وطرحت قضية الانتماء، وأكدت على محورية

الذات وقيمتها، وخلصت إلى أن المنافي أمكنة تعشش فيها الهويات المفتتة إذ تتلون الهوية بخصوصية العنصر المكاني.

3- شكل التناوب بين فعلي الذاكرة والنسيان في الرواية فعلا إنسانيا متواصلا ومتراكما عبر عن وجهة وموقف من الحياة، وأسهم في بعث تعالق بين الذاكرة والهوية وتداخلهما، فالواحدة تفرز الأخرى بالتبادل، منذ لحظة تشكلهما إلى نقطة نهايتهما.

4- ارتبط اكتساب أسماء جديدة في الرواية بميلاد هوية شخصية جديدة في النسيان ساهمت في خدمة هوية بديلة على حساب الهوية الأصل، بوصف الاسم هيكل الذاكرة وإطارها؛ أي أن الذاكرة معطى زماني بحت تمثل الماضي كموضوع للتاريخ، لكنه شيء يتطلب الذكر حتى لا يشمله النسيان.

5- قامت روايات **عمارة لخوص** على سردية الذاكرة والنسيان بوصفهما فعاليتين يتم في خضمهما انتقاء أحداث الماضي، وإعادة بنائه وصوغه في قالب كوميدي يطفح بالتناقضات والمفارقات، في تأكيد على شرعية الاهتمام بالهوية في صيرورتها من حيث هي حقيقة وجودية بالنسبة لكل فرد أو جماعة، واتجاهها نحو الذاكرة لإعادة بناء الذات وإثباتها وتفتحها، كما تبنت فكرة الهويات المنفتحة على التعدد والاحتواء والتشظي والتمزق.

هوامش:

[1] – جويل كاندو: الذاكرة والهوية، تر/ وجيه أسعد، الهيئة العامة السورية للكتاب (دمشق)، 2009، ص: 92.

[2] – جينز بروكمبير، دونال كربو: السرد والهوية، تر/ عبد المقصود عبد الكريم. ط1، المركز القومي للترجمة (القاهرة)، 2015، ص: 32.

[3] – إدوارد سعيد: التلفيق، الذاكرة، والمكان. تر/ رشاد عبد القادر، مجلة الكرمل، ع70- 71، قبرص، 2002، ص: 94.

[4] – كاظم نادر: السرد والهوية. ط1، دار الفراشة (الكويت)، 2016، ص: 130.

[5] – المرجع نفسه، ص: 132- 133.

[6] – عمارة لخوص:كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك. ط1، منشورات الاختلاف(الجزائر)، 2000، ص: 122.

[7] – الرواية، ص: 108.

[8] – الرواية، ص: 109.

[9] – الرواية، ص: 117.

[10] – الرواية، ص: 125.

[11] – الرواية، ص: 126– 127.

[12] – جويل كاندو: الذاكرة والهوية، ص: 04.

[13] – المرجع نفسه، ص: 10.

[14] – ميري ورنوك: الذاكرة في الفلسفة والأدب، تر/ فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة (بيروت)، 2007، ص: 108.

[15] – الرواية، ص: 29.

[16] – الرواية، ص: 138.

[17] – المرجع نفسه، ص: 113.

[18] – تزيفتان تودوروف: الأمل والذاكرة، تر/ نرمين العمري. ط1، مكتبة العبيكان (الرياض)، 2006، ص: 242.

[19] – الرواية، ص: 139.

[20] – الرواية، ص: 21.

[21] – الرواية، ص: 129.

[22] – الرواية، ص: 21.

[23] – عمارة لخوص: القاهرة الصغيرة. ط1، منشورات الاختلاف (الجزائر)، 2000، ص: 21.

[24] – الرواية نفسها، ص: 22.

[25] – جويل كاندو: الذاكرة والهوية، ص: 83.

[26] – المرجع نفسه، ص: 83– 84.

[27] – الرواية، ص: 145.

[28] – سعيد الغانمي: ما الهوية السردية؟ مجلة أبواب، ع20، لبنان، 1999، ص: 219.

[29] – الرواية، ص: 105.

[30] – الرواية، ص: 113.

[31] – الرواية، ص: 94.

[32] – الرواية، ص: 109.

[33] – الرواية، ص: 137.

[34] – الرواية، ص: 114.

[35] – الرواية، ص: 60.

[36] – سيغموند فرويد: الطوطم والحرام، تر/ جورج طرابيشي، دار الطليعة (بيروت)، ص: 77.

[37] – سعيد الغانمي: ما الهوية السردية؟، ص: 212.

[38] – الرواية، ص: 129.

[39] – الرواية، ص: 131.

[40] – أمين معلوف: الهويات القاتلة، تر/ نبيل محسن. ط1، دار ورد (دمشق)، 1999، ص: 14.

[41] – الرواية، ص: 131.

[42] – الرواية، ص: 129.

[43] – أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص: 07- 08.

[44] – الرواية، ص: 134- 135.

[45] – الرواية، ص: 52.

[46] – الرواية، ص: 54.

[47] – الرواية، ص: 59.

[48] – بول ريكور: سيرة الاعترافات، تر/ فتحي انقزو. ط1، المركز الوطني للترجمة (تونس)، 2010، ص: 154.

[49] – بيير ديفانبيه وآخرون. معجم الحضارة اليونانية القديمة، تر/ أحمد عبد الباسط حسن. ج2، ط1، المركز القومي للترجمة (القاهرة)، 2014، ص: 221.

[50] – فتحي المسكيني: الهوية والحرية نحو أنوار جديدة. ط1، دار جداول (بيروت)، 2011، ص: 228.

[51] – لاري سكوارير، إيرك كاندل: الذاكرة من العقل إلى الجزئيات، تر/ سامر عرار، مكتبة العبيكان (الرياض)، ص: 10.

[52] – بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان، تر/ جورج زيناتي. ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة (بيروت)، 2009، ص: 602.

[53] – تزيفتان تودوروف: الأمل والذاكرة، ص: 324.

[54] – فريدريش نيتشه: في جينالوجيا الأخلاق، تر/ فتحي المسكيني. ط1، دار سيناترا (تونس)، 2010، ص: 87.

[55] – الرواية، ص: 122.

[56] – الرواية، ص: 127.

[57] – إدوارد سعيد: التلفيق، الذاكرة، والمكان، ص: 96.

[58] – فريدريش نيتشه: في جينالوجيا الأخلاق، ص: 82.

[59] – المرجع نفسه، ص: 82.

[60] – الرواية، ص: 31.

[61] – الرواية، ص: 87.

[62] – الرواية، ص: 127-128.

[63] – الرواية، ص: 150.

[64] – الرواية، ص: 150.

[65] – تزيفتان تودوروف: الأمل والذاكرة، ص: 233.

[65] – سوزان سونتاغ: الالتفات إلى ألم الآخرين، تر/ مجيد البرغوثي. ط1، دار أزمنة (عمان)، 2005، ص: 108.

[65] – فتحي المسكيني: الهوية والحرية نحو أنوار جديدة، ص: 231.

[66] – تزيفتان تودوروف: الأمل والذاكرة، ص: 233.

[66] – سوزان سونتاغ: الالتفات إلى ألم الآخرين، تر/ مجيد البرغوثي. ط1، دار أزمنة (عمان)، 2005، ص: 108.

[66] – فتحي المسكيني: الهوية والحرية نحو أنوار جديدة، ص: 231.

[67] – الرواية، ص: 122- 123.

[68] – الرواية، ص: 125.

[69] – الرواية، ص: 120.

[70] – الرواية، ص: 126.

[71] – الرواية، ص: 150.

[72] – الرواية، ص: 137.

[73] – فتحي المسكيني: الهوية والحرية نحو أنوار جديدة، ص: 231.